العنوان:	تأملات في سورة الكوثر
المصدر:	هدي الإسلام
الناشر:	وزارة الأوقاف والشئون والمقدسات الإسلامية
المؤلف الرئيسي:	القلقيلي، محمد عادل
المجلد/العدد:	مج 27, ع 9
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	1983
الشهر:	يونيو - رمضان
الصفحات:	14 - 16
رقم MD:	414187
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	القرآن الكريم، سورة الكوثر، تفسير القرآن
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/414187

تأملات في
سورة الكوثر

بقلم : محمـد عادل القلقيلي

بسم الله الرحمن الرحيم

«إنا أعطيناك الكوثر* فصلِ لربك وانحر* إن شانئك هو الابتر»

لقد تحدّى الله الكفار أن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن، وهو سبحانه وتعالى أعلم بما في السورة من الإعجاز، وقد أمرنا الله بتدبر القرآن فقال: «أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا»، سورة النساء وقال :«افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها»، سورة محمد وقال : «كتاب أنزلناه اليك مباركاً ليدبّروا آياته وليتذكر أولو الألباب»، سورة ص.

وهذه سورة الكوثر أصغر سور الكتاب العزيز، فلنحاول أن نتدبرها وندرسها، مكتشفين ما فيها من تلاحم وترابط حقيقي يبدّد الاختلاف الظاهري الذي يبدو للوهلة الأولى بين أجزائها. فما علاقة نهر الكوثر بالصلاة؟ وما علاقته بنحر الأضحية، وما علاقته بمبغض الرسول صلى الله عليه وسلم (شانئك)؟.

ان التفسير الظاهري للسورة واضح: فالله قد اعطى رسوله الكوثر وهو الخير الكثير أو نهر في الجنة وأمره ان يصلي لربه و ينحر له الأضاحي ثم أخبره بأن مبغضه «وهو العاص بن وائل أو أبو جهل» هو الأبتر أي المقطوع ذكره من خير الدنيا والآخرة. (راجع تفسير القرطبي).

فما الذي يربط بين هذه الأفكار؟ إن الرابط بينها هو مفهوم (النهر). فالنهر ماء جار متدفق ينحدر من مكان عال الى مكان منخفض، وهو يصلح للأشياء التالية:

أولاً: ري الكائنات الحية من نباتات واحياء، ونقل أغذيتها من املاح التربة الى اجزائها من اوراق واغصان الخ.

ثانياً: الطهارة والغسل بمائه.

ثالثاً:نقل الأجسام من مكان الى آخر على السفن وما يشابهها.

والآن لننظر هل يتجلى مفهوم النهر في جميع أجزاء هذه السورة القصيرة؟ ولنبدأ بقوله تعالى «إنّا أعطيناك»، ومفهوم النهر فيها أنه ينحدر من الأعلى الى الأدنى، فالأعلى هو الله تعالى المشار اليه بقوله «إنّا» والأدنى هو رسول الله المشار اليه بكاف الخطاب في قوله «أعطيناك»، والخلق كلهم في المكان الأدنى بالنسبة الى الله العلي الأعلى. ففكرة النهر هنا واضحة بانحداره من الله الأعلى الى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو المخلوق الأدنى.

وأما فكرة النهر في قوله تعالى «فصَلِّ» أي في الصلاة فتتجلى في أن الصلاة طهارة مادية ومعنوية، فالطهارة المادية هي «أولاً» التطهر من النجاسات المعروفة «وثانياً» الوضوء وهو غسل أعضاء الوضوء بالماء.

والطهارة المعنوية التي يجنيها المصلي من صلاته تكمن في تركه للصفات والأخلاق والأفعال الذميمة، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصلاة تجتث النوازع السيئة التي خلقت مع الانسان، كما قال تعالى «إن الانسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا، إلا المصلين، الذين هم على صلاتهم دائمون» (سورة المعارج).

ومن ناحية أخرى فإن فعل الصلاة التطهيري يتجلى في تكفيرها للسيئات التي يرتكبها الانسان، وذلك كما في الحديث الشريف المتفق عليه «عن أنس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، إني أصبت حدّاً، فأقمه عليّ. قال: ولم يسأله عنه. وحضرت الصلاة، فصلى مع الرسول صلى الله عليه وسلم. فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة قام الرجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حداً، فأقم فيّ كتاب الله. قال: أليس قد صليت معنا؟ قال: نعم. قال: فإن الله عز وجل قد غفر لك ذنبك أو حدك».

ولقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم بأجلى بيان و بأصرح الألفاظ ارتباط فكرة «النهر» بالصلاة في الحديث الشريف المتفق عليه: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهنّ الخطايا».

هذه فكرة النهر في الصلاة، فأين فكرة «النهر» في نحر الأضحية، أي ذبحها؟ أن النحر إسالة الدم الجاري في عروق الجسم. فلنتوقف عند «الدم» ولنتأمل علاقته بالنهر. إن الدم ليس إلا نهراً يتدفق في شرايين الجسم وأوردته راوياً أجزاء الجسم ومغذياً لها بما يحمل من الاغذية ومن الاوكسجين كما يروي

النهر العادي الأشجار و ينقل اليها الأغذية. كما أن الدم يقوم بعمل آخر من الأعمال التي يقوم بها النهر وهو التطهير، إذ ينقل الدم السموم التي تنصب فيه الى الكليتين اللتين تطردانها الى خارج الجسم عن طريق المثانة.

هذه واحدة، وأما الأخرى فهي أن نحر الاضحية عمل تطهيري معنوي، فإنفاق المال لشراء الأضحية ثم تقديم لحمها للفقراء وغيرهم، عمل يطهر النفس من الشح، شأنه في ذلك شأن الزكاة، وقد قال الله تعالى «ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون».

والآن أين فكرة النهر في الآية الأخيرة من السورة «إن شانئك هو الابتر»؟ إن الأبتر هو الرجل الذي مات جميع أولاده الذكور ولم يخلفوا أولاداً، و بذلك ينقطع ذكره من بعده. ان الزمان يجري — كما يجري النهر — ناقلاً على ألسنة الناس أخبارهم وأفعالهم وما يستحقونه من ثناء وحمد، أو ذم ونقد، و بذلك تعتبر الأجيال بالأجيال التي سبقتها؛ فكما ان النهر العادي ينقل الأغذية الى النباتات و يرويها بمائه، فكذلك ينقل نهر الزمان الجاري أغذية العبر والمواعظ من جيل الى جيل.

والآية الكريمة اذ تقرر أن مبغض الرسول هو الذي انقطع ذكره بالخير، فإنها تعني ضمناً أن ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحمد والثناء لن ينقطع ابداً، أي أن نهر الزمان [illegible] حاملاً مآثر الرسول الكريم من جيل الى جـ[illegible] مغذياً بذكره قلوب الناس ونفوسهم، وذلك مصداقاً للآية الكريمة «فأما الزبد فيذهب جفاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض» وأما مبغض الرسول فقد انقطع نهر ذكره و بتر.

ونلاحظ أخيراً أن هناك ترابطاً خاصاً بين الآيتين الأخيرتين، وهو بين النحر والبتر، فالنحر قطع لشرايين الأضحية، والبتر قطع لذكر مبغض رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهكذا يتجلى لنا كيف ارتبطت السورة كلها بفكرة النهر ارتباطاً متلاحماً منسجماً، رغم اختلاف معانيها اختلافاً ظاهرياً، وذلك دليل على أن هذا القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والحمد لله رب العالمين